(14) زيد بن حارثة

« زيد بن محمد » ، هكذا كان اسمه أولاً ، ثم عاد إليه اسمه الأصلي « زيد بن حارثة » بعد إبطال عادة التبني ، كان رسول الله ﷺ يحبه حبًا شديداً حتى أطلق عليه « حبّ رسول الله ﷺ » بل إنه الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن الكريم دون غيره من الصحابة وما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا وأمره عليها كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها .

رباه الرسول ﷺ في بيته وهو طفل صغير ، رغم أنه ليس مكياً أو قرشياً كيف ذلك ؟ وممن يكون ؟ وما الذي أتى به مكة ؟ وكيف وصل إلى بيت الرسول ﷺ ؟ وما فضله وشرفه ؟ كيف عاش ؟ وكيف نال هذا الحب العظيم ؟ وكيف مضى إلى ربه راضياً مرضياً .

إجابة هذه الأسئلة وغيرها نجدها في قصة حياة هذا الصحابي الجليل . .

* * *

كان عُمْر زيد حوالي ثماني سنوات يوم خرجت به أمه سُعْدى بنت ثعلبه لزيارة أهلها ، وفي أثناء إقامتها أغارت قبيلة على أهلها ، ونهبت أموالها وإبلها ، وسبت غلمانها ، وكان من جملة السبي زيد بن حارثة ، ذلك الطفل الصغير الذي يدرك ويعي ما يحدث .

تناقلت الأيدي زيداً حتى أوصلته إلى أحد أسواق مكة ، وبيع هناك لأحد أشرافها وهو حكيم بن حزام بن خويلد ، ابن أخ السيدة خديجة زوجة محمد بن عبد الله ﷺ وكان ذلك قبل البعثة النبوية .

ذهب حكيم إلى عمته خديجة ومعه الغلام ، وقال لها : يا عمة ، هذا غلام اشتريته بالأمس ، ورأيت فيه علامات النجابة[1] ، وإمارات الذكاء ، فخذيه هو هدية لك .

قبلت السيدة الفاضلة هدية ابن أخيها ، ولما رأت في الغلام الصغير ما يدل على سمو أخلاقه ، ورجاحة عقله وهبته لزوجها محمد بن عبد الله ﷺ . . عاش

---

(1) النجابة : النباهة والأفضلية على المثل .

زيد مع هذه الأسرة العظيمة، وعوضه حنان السيدة وزوجها عن حنان أبويه ، بل أكثر ، فقد منحاه الحب والعطف، وحسن المعاملة التي جعلته يشعر كأنه ابن لهما، وليس خادماً عندهما، الأمر الذي جعله يفضلهما على أبويه .

* * *

ما أن علم حارثة بن شراحبيل الكلبي بفقد ولده زيد حتى بدأ البحث عنه في كل جزيرة العرب ، ويود لو وجده لافتداه بكل ما يملك .

لما حضر موسم الحج ذهب إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة أناس من قبيلة « كلْب» قبيلة زيد، ولما رأه ورأهم ، عرفوه وعرفهم ، حتى إذا ما انقضى الحج انطلقوا إلى أبيه وأعلموه بمكان فقيده، وعند من يكون ، وحين سمع الرجل هذا الخبر السعيد طار مع أخيه كعب إلى مكة المكرمة ومعما المال لافتداء زيد والعودة به إلى دياره حيث الأم المكلومة [1] والأب الحزين .

وصل الأب والعم إلى مكة المكرمة ، وعلما أن ابنهما في بيت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن سيد قريش ، فاستبشرا خيراً ، وأيقنا أنهما سيعودان بابنهما، فذهبا إليه وقالا له : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل الحرم وجيرانه تفكون العاني [2] وتطعمون الأسير، جئناك في ابن لنا عندك، فامنن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه . فقال محمد بن عبد الله ﷺ : من هو ؟ قالا : زيد ابن حارثة ، فارتسمت ابتسامة على وجه محمد بن عبد الله ﷺ وهو يقول لهما فهلاّ غير ذلك ؟ قالا : وما هو ؟ قال : ادعوه وخيّروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني فما أنا بالذي أختار على من اختارني أحد . وأشرق وجه الرجلين ، فما كان في حسبانهما هذا الشرف وهذا الكرم من ابن سيد قومه محمد بن عبد الله ﷺ ، وما كانا يشكان لحظة أن ابنهما سيختار عليهما أحد .

قال الرجلان : لقد أحسنت وبالغت في عدلك وانصافك ، وأحسنت إلينا في فدائه . فدعا محمد ﷺ غلامه زيداً ، وقال له وهو يشير إلى الرجلين : هل تعرف هؤلاء ؟ فأجابه : نعم هذا أبي ، وهذا عمي .

---

(1) المكلومة : الجريحة .

(2) تفكون العاني : تطلقون الأسير .

فخيره قائلاً : فإنا من قد عرفت ، ورأيت صحبتي لك ، فاخترني أو إخترهما . . ولم يتردد الغلام زيد وهو يجيب : ما أريدهما ، وما أنا بالذي أختار عليك أحداً . أنت مني مكان الأب والعم .

وهنا يتعجب الرجلان ، وترتسم الدهشة على وجهيهما وهما يقولان : ويحك يازيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟!!

فأجابهما الغلام على الفور وهو ينضم ناحية محمد بن عبد الله ﷺ ويتعلق به : نعم ، لقد رأيت من هذا الرجل شيئًا ، وما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . هنا يزداد تعجب الرجلين ، إذ كيف يرفض زيد العودة إلى دياره وأهله وحريته ، ويفضّل دياراً غريبة ، وقوماً غرباء ولا يدريان أنه في نعمة وعز وأهل خير من أهله ، وديار خير من دياره .

لما قال زيد ذلك تهلل وجه محمد بن عبد الله ﷺ بالبشر ، وأخذ بيد زيد وانطلق به إلى الكعبة ، وهناك عند الحجر حيث يجلس بعض السادة ، نادى : « **يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني ، يرثني وأرثه** » .

ولما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفسيهما واطمأنا إلى أن ابنهما في أيد أمينة ، وأهل أخيار ، وقلوب رحيمة .

ومن يومها صار اسم زيد « زيد بن محمد » فلقد كان التبني مباحاً في ذلك الوقت حتى جاء الإسلام وأبطل هذه العادة كما سيأتي .

***

بعد سنوات قليلة من هذا المشهد هبط الوحي الأمين جبريل عليه السلام على محمد بن عبد الله ﷺ ، وأبلغه أنه رسول رب العالمين إلى الناس كافة ، وعليه أن ينذر عشيرته الأقربين . وأطاع الرسول ﷺ أمر ربه ، وكان أول من أمن به زوجته الفاضلة السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ثم ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم زيد بن حارثة رضي الله عنه وكانا غلامين آنئذ .

عاصر زيد رضي الله عنه بداية الدعوة ومراحلها الأولى ، والصعاب التي لاقت نبي الله ﷺ ، وصحابته رضي الله عنهم ، ولم يزدد زيد رضي الله عنه إلا حباً لله تعالى

ورسوله، ولم يترك رسول الله ﷺ لحظة واحدة ، بل كان يلازمه كظله حتى أطلق عليه « زيد الحب » لشدة حب رسول الله ﷺ له .

مرت على الدعوة الإسلامية ثلاث عشرة سنة بمكة المكرمة ، لاقى فيها المسلمون الأوائل ما لاقوة من تعذيب واضطهاد ، حتى أذن الله تعالى ورسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر زيد مع من هاجر ، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ وأسد الله تعالى . . وبدأت مرحلة جديدة في حياة الدعوة الإسلامية وفي حياة زيد رضي الله عنه أيضاً .

***

شب زيد رضي الله عنه شجاعاً مدافعاً عن دين الله ، مجاهداً في سبيله، وعندما قامت المعارك بين قوى الشر، وقوى الخير كان المحارب بجوار النبي ﷺ ، والأمير في السرايا ، وشهد غزوة بدر وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ وعندما انتصر المسلمون في معركة بدر الكبرى أرسله الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة يبشر أهلها بالنصر .

وما أرسله الرسول ﷺ في سرية إلا وأمره عليهم .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها « ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليهم » ويقول سلمة بن الأكوع رضي الله عنه « **غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات ، ومع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا رسول الله ﷺ** » .

وبلغ من حب رسول الله ﷺ لزيد رضي الله عنه أنه كان يشتاق إليه إذا غاب ويفرح إذا عاد ، ويهش [1] للقائه حين يلقاه ، وقد زوّجه من مولاته وحاضنته أم أيمن رضي الله عنها فولدت له أسامة الذي نشأ في كنف [2] رسول الله ﷺ كأبيه ، وصار أسامة بن زيد رضي الله عنهما الحبّ بن الحبّ .

وأراد الله تعالى لزيد شرفاً أعلى ، ومكانة أكثر سمواً ، وذكراً يتردد إلى يوم القيامة فجعله سبباً لابطال عادة التبني التي كانت معروفة عند العرب في ذلك الوقت .

***

(1) يهش للقائه : ينشرح صدره للقائه .
(2) كنف : جوار وجانب .

كان التبني عادة جاهلية معروفة عند العرب وهي أن الرجل يتبني غلاماً فيصير كابنه يرى كلاهما الآخر ، ويحرم على الأب أن يتزوج من زوجة متبناه إذا طلقها أو مات عنها . فأراد الله تعالى أن يبطل هذه العادة ، ويحسم هذه القضية ، فليس الابن المتبنى كالابن الصلبي ، وقد مر ذلك بمراحل . . **الأولى**: عندما كان يطلق على زيد اسم « زيد بن محمد » فنزل قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [الأحزاب : 4، 5] .

فهنا عاد إلى زيد اسمه الأول الأصل وهو « زيد بن حارثة » وكان ذلك أول الأمر .

ثم المرحلة الثانية ، وهي ابطال هذه العادة بصورة عملية ، وذلك أن رسول الله ﷺ ذهب يخطب ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فأبت زينب وأبي أخواها عبد الله وعبيد الله ، إذ كيف وهي القرشية الحسيبة النسيبة تتزوج من مولى هو زيد بن حارثة ؟! ولكن الإسلام لا يعترف بهذه الأحساب ، فلا تفاوت بين المسلمين بالحسب والنسب ، إنما التفاوت فقط بالتقوى وعمل الصالحات ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : 13] .

وهنا ينزل قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً** ﴾

[الأحزاب : 36] .

فأطاعت زينب بنت جحش رضي الله عنها أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، وتم زواج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش .

ويبدو أن الحياة بينهما اكتنفتها [1] بعض المشكلات ، وكان زيد رضي الله عنه يذهب إلى رسول الله ﷺ ويشكو له حاله مع زينب ، والرسول ﷺ يأمره بالصبر والإمساك عليها ، ومرة بعد مرة يخبر زيد رضي الله عنه رسول الله ﷺ أنه يود طلاق زينب ، لأن

(1) اكتنفتها : أحاطب بها .

العشرة بينهما أصبحت شبه مستحيلة ، فيقول له الرسول ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله وينصحه بعدم طلاقها .

وأخيراً انتهت الحياة بينهما بالانفصال ، وبعد مدة ينزل الأمر الألهي بزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد انتهاء عدتها ، فتنتهي بذلك تلك العادة الذميمة ، ويذهب زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى زينب مبشراً وهو يقول : أبشري يا زينب ، فقد زوجك الله تعالى برسول الله ﷺ .

وانتهت بذلك عادة عدم زواج الرجل من ابنة متبناه ، وفي هذا نزل القرآن الكريم يعرض تلك القضية مع اكرام زيد رضي الله عنه بأن ذكر اسمه ، فإذا كان زيد قد حرم من اسم زيد بن محمد ، فإن الله تعالى عوضه بأن ذكر اسمه في كتاب باق ، يتلى إلى يوم القيامة ، ويتعبد بتلاوته .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : 37 ، 38] .

ولكن يبدو أن البعض لم يفقهوا ولم يستوعبوا هذا الأمر ، وهذه الحكمة فتساءلوا فيما بينهم : كيف يتزوج محمد من زوجة متبناه المطلقة ؟

وهنا كانت المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه القضية ، وهذا التشريع الحكيم ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : 40] .

***

وتمضي سنوات ، وفي جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة أراد رسول الله ﷺ أن يقتصّ ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه الذي كان قد أرسله بكتاب إلى أمير «بصرى» فتعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني عند قرية « مؤتة» عند مشارف بلاد الشام ، وقتله ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسولاً غيره .

جهز ﷺ الجيش ، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وأمّر عليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وقال لهم : إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة . .

وسار الجيش إلى حيث أمر رسول الله ﷺ، فوجدوا أن الروم قد جمعوا لهم مائة ألف ، وانضم إليهم من قبائل العرب المتنصرة الموالية للروم مائة ألف آخرين ، فصارجيش العدو مائتي ألف مقاتل ، وهنا تفاوض قادة الجيش فيما يفعلونه ، أيقاتلون وهم بهذا العدد القليل ، وعدوهم بهذا العدد وهذه العدة ؟ أم يرسلون إلى رسول الله ﷺ يستشيرونه ويطلبون منه المدد [1] .

وبعد المشاورات قام فيهم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مستنهضاً فيهم شجاعتهم ، وحثهم على القتال ، حتى أجمعوا أمرهم على دخول المعركة .

***

أخذ زيد بن حارثة رضي الله عنه الراية ، وتقدم الصفوف ، وهو يصيح الله أكبر ، الله أكبر ، ثم اخترق صفوف الرومان ، وأخذ يضرب بسيفه يميناً ويساراً ولا يبالي بما يصيبه من سهام ورماح العدو ، حتى تناولته سيوفهم ، وسقط شهيداً وسط دمائة ، ولم تسقط الراية بل أخذها بعده جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقاتل حتى قتل شهيداً ، وأخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة ، وقاتل حتى قتل شهيداً ، واصطلح الجند على خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي استطاع أن يخلص الجيش وينسحب به دون أن تلحقه خسارة كبيرة .

في هذه الأثناء كان الله تعالى قد أعلم رسوله ﷺ بأحداث المعركة ، فقد وقف في مسجده ينعي صحابته ، ويصف وقائع المعركة ، ويقول : أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم صمت ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا حدوث شيء يكرهونه في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ثم قال ﷺ : ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ، ثم قال : لقد رفعوا إلى الجنة على سُرُر من ذهب .

وذهب رسول الله ﷺ يعزي أهل القواد الثلاثة ، وعندما وصل إلى بيت زيد

(1) المدد : الإعانة والمساعدة .

أجهشت [1] ابنته بالبكاء ، فبكى النبي ﷺ حتى سمع صوت بكائه سعد بن عبادة رضي الله عنه فسأله : ما هذا يا رسول الله ؟!

فأجابه ﷺ : هذا بكاء الحبيب على حبيبه .

رضي الله عن حبّ رسول الله زيد بن حارثة ، ومتعة بالخلود في الفردوس الأعلى . .

* **من فضائل زيد بن حارثة** رضي الله عنه .

(1) يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب : 37] .

(2) قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « **يا زيد أنت مولاي ، ومني ، وإليّ ، وأحب الناس إليّ** » رواه الإمام أحمد وحسنه الألباني .

(3) تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليهم ، ولو بقي لاستخلفه بعده » .

(4) عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن حارثة رضي الله عنه « **أنت أخونا ومولانا** » جزء من حديث رواه البخاري .

* * *

(1) أجهشت : همت بالبكاء .